قصة

-آه كم اشتقت إلى أيام الخوالي يا أحمد. مرت السنين، ومضى العمر، وأصبح الزمن يسري خلفنا. ألا تصدقني القول. كنا في الثلاثينيات. نهوى وكان كل شي ممكن. لعلّ شعور الحرية العاطفية. أن تحب يوماً امرأة، وتنهرها في اللآخر. وفي اليوم التالي. تحب امرأة أخرى تماماً. كم كان شعوراً خفيفاً على القلب. كنسمات الصيف الباردة. عندما تهب عليك، تصفي اللّب من الشوارد.

-تتحدث يا مازن وكأننا في سن الخمسينيات. مازلنا في أواخر الثلاثين. ثم تشركنا في المصيبة. ألا وهي الزواج. فأنا لست من يقع في فخ الزيجة. وأنت خير العالمين بذلك...ألا أنني في العشق أهوى، وأسقط، أرتبك يا رجل. لا أعلم ما يصيبني. أنت تتحدث وكأن منزلي من قش. فتكون رياح الهوى كفيلة بسقوطه. وقد خصصت في قدومي اليوم حتى أعوذ أليك، كي ترشدني. فما من إنسان يقربني. ثم ما من إنسان يفهمني، ويحيط بدائرة مصيبتي إلا أنت يا مازن. فقد وقعت، كما بان لك من حديثي المقتضب، في شراك امرأة، لا تعلم من عن الحياة أمراً كما تعلم الإغواء. وفي شراكها. وإن لم يخيب ظنّي، مجموعة، قل مجموعات من الشباب يا رجل. جميلة كالقمر. تتوهم في نظرات عينيها أنك تبصر النجوم. وعندما ترمش. يتوقف الزمن، وتتباطأ الثواني. حتى تبصر الرموش، في أدق تفاصيلها، وفي أرفع مخالبها. تصرعني تلك الرموش وترميني أرضاً عندما أصارعها. ففي كل مرة أحاول فيها أن أتمالك الموقف أتجمّد. وأتثبت عن الحركة، لأبقى غنيمة. تذكّرني دائماً ببيت شعر من ديوان جرير حين يقول :

يصرعن ذا اللّب حتى لا حراك به   وهن أضعف خلق اللّه أركانا

على أنني أخالفه الرأي في الشطر الثاني. فمن أين الضعف يا مازن. أن تتحدث عن امرأة تعادل الف رجل في القوة. صحيح ليس في قوة الجسد. لكن منذ متى ارتبطت القوة بالعضلات. ثم دعنا من الفلسفة الآن...

-في حديثك شيء من المبالغة يا مازن. فأنا عشت مديداً دون أن أسمع وصفاً، ولامرأة، من ذلك الوصف الذي بالغت فيه. وكأن حليباً شاط من غليانه.

-ههه. أنت إذاً مصر على طعونك في السن يا أحمد. وإن لم يخالفني الظن. فهي الزيجة. أليس كذلك يا صديقي.

-زيجة أم غيرها من الأسباب. ألا ترى أن ايام الشباب قد ولّت. وقد انعكس سحرها علينا. وقد ذبلت المتعة. وانطفأت اللّذة...الزمن هو الحاكم. ومراد ذلك أننا محكومون بكل دقيقة منه. والآن غلبت سيطرته على طاقتنا.

-لا. بل يقال يا أحمد أن لكل زمان شبابه. وليس الشباب في سن. أو في عمر أنت تحدده أو غيرك من السّابقين إلى الشيخوخة. بل تحدّده تلك اللّحظات التي نعيشها في أيامنا. فقد نكون في أفكارنا ومواقفنا أولاداً ونحن في أواخر العمر. وقد نكون شيوخاً كهولا في مقتبل العمر إذا ما حكمنا على المواقف حكماً فلسفياً منطقياً خالصاً...فما رأيك ؟

-العبرة الآن ليست في فلسفتك الغير مجدية. فقد ضاق صدري عليّ من المرواغة في الحديث.

-إذاً دعنا نتابع حديثنا حول عشيقتي.

-تجعل من حديثك حول امرأة خيالية حديث الجميع. ثم تجزم بعشقها ومحبتها. ومن جميع البشر أنت...خنقتني يا رجل.

-وكيف تحكم على أنها خيالية وأنت لم تراها.

-بل أحكم أنها موجودة عندما أبصرها يا أحمق. ألا أنني تيقنت الآن أن العشق قد رماك أرضاً بسهامه. أأمل أن تكون صاحبة الحظ السّيء امرأة فاتنة.

-لا والله أنت الذي يرميني بسهامه. وقد غلبتني في ذلك. ههه.

-تابع إذاً...وماذا في المشكلة أنك أحببتها. وأنها، هذا إذا ما رجحنا الافتراض، أنها جميلة جداً. ماذا في ذلك. النساء في أيامنا هذه يستعرنا الجمال من الأطباء. والمال يغني جمالاً لا ثراءً.

-من المفاجئ أن تلك الكلمات تنبع من زير نساء.

-وما علاقة كوني زير نساء قديم بجمال المرأة. بل إذا أردت أن تجمع بين التشبيهين. فأنا كنت الهو مع النساء لأنهن كاذبات منافقات. وجمالهن المتصنّع أكبر إثبات على صحة كلامي. أما كل شيء حقيقي. أعني على طبيعته. فالأفضل أن يحفظ بعيداً عن تلويث الإنسان.

-ههههه. أنت فعلاً زير نساء عن قلب وقالب. وأفكارك حول جنس حواء لا تتغير. هي كما كانت. طوى عليها الزمان صفحات. إنما محفوظة في ذلك الدماغ. تماماً كما عنيت في حديثك حول الجمال الحقيقي.

-دعنا الآن من التشابيه ومن الاستعارات.

-إذاً أنت في شوق أن تتعرف أكثر على الحسناء.

-أنا في شوق أكثر أن أتابع إلى متى ستصل حماقتك.

-بل أقبل أن أكون أكثر من ذلك شرط أن أحظى بتلك المرأة.

-يا خوفي إذاً أن لا تستطيع الحظيان بها، وهكذا تتلبسك الحماقة من غير سترة داخلية تحميك من شوكها. ألا تظن ذلك يا أحمد.

-بل أظن أنني، ولعل عفويتي ما سوف يلهب في قلبها نيران العشق والهوى.

-في كلامك، على أنني لا أوافقك الرأي في كثير من الأمور، جزء من الصحة. فغالباً ما تحتاجه المرأة المحترفة في التضليل، إلى رجل ضال. لا تسيء الظنّ. أعني أن هذا النوع من النساء ينتهي به الأمر بذلك النوع من الرّجال. فقد قرأت في أحد الكتب أن العلاقة الزوجية كي تستمر، عليها أن تخضع لمنظومة معينة. تشبه منظومات الحكم. مختصر الحديث. سوف تتحكم بك تلك المرأة وسوف تغويك وترشدك إلى الضلالة. وقبل أن تموت ترميك عظماً للكلاب.

-دائماً ما تقود الحديث يا مازن حتى تسيطر على زمام الأمور. وأبقى أنا في النهاية كريق اللّعاب الذي يتجمّع من كثر الكلام.

-ههه. لا تبالغ في هذا يا أحمد. أنا قد اعتدت على الانتقاد والمبالغة فيه أحياناً. لعلّ نظرتي للحياة أرغمتني على ذلك.

-لا أشك أن الحياة نفسها تخاف من تلك النظرات الشريرة.

-تنعتني بالوحش إذاّ

-أعوذ بالله.

-ههه. دعنا نحتسي القهوة إذاً. سأطلب من عبير زوجتي أن تعدّها لنا. هي تجيد أن تعد أفضل قهوة في العالم تعلم هذا ؟

-لا أشك في ذلك أبداً يا مازن، لطالما نشرب دائماً أطيب قهوة لديك.

طلب مازن من عبير زوجته أن تعد لنا القهوة. في أثناء ذلك، تبادلنا أطراف الحديث. وتناولنا مختلف المواضيع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وكأننا نحضر أنفسنا في تلك الوجبات الخفيفة، التي اعتبرناها مقبلات، إلى الوجبة الرئيسية ألا وهي روايتي مع الحسناء الفاتنة. لم تطل المدة كثيراً إلى أن سمعنا دقات خفيفة على الباب...

-اتفضلي حبيبتي

صرخ مازن

دخلت عبير إلى الغرفة، حاملة في يدها الصينية وعليها مقدارين من القهوة. وكأس ماء بارد غلف زجاجه البخار. شقّت الباب في حذر شديد كي لا تسقط اي قطرة من فم الفنجان على الصحون الصغيرة الخاصة بها. ثمّ تقدمت نحونا في حرص واستعداد. كانت ترتدي فستاناً أبيضاً مورّداً. توزّعت فيه الورود على حريره في خطوط شاقولية في منتهى الدقة. ينتهي الفستان حتى الركبتين في تموجات منتظمة نحو الأعلى و نحو الأسفل. وما أسفل ذلك تبصر الساقين العاريتين، التي يغطيهما جلد ناعم جداً. ورقيق كرقة الحرير الذي يغطي جسدها. وتنتعل في قدميها شحاطة شتوية صوفية بيضاء اللّون. تكللّها زغاريف تحيط بكرة اسفنجية حمراء اللّون. كلون تلك الورود على الفستان. كانت تبصر الأرض وهي تتقدم إلينا. فلم تلتقي عيني بيعنيها الساحرتين ولا بأخاديدها المورّدتين. التي لطالما أبصرت بهما جميع النساء. وضعت عبير الفنجانين الخاصين بي وبمازن على الطاولة الخشبية التي تتقدّم المكتب بسنتيمترات. وما إن حطّت يدها على الصحن المخصوص بكأس الماء حتى قلت

-تستطيعين يا عبير أن تضعيها بجانبي. فأنا أحب المياه الباردة. وخاصةً إذا رافقتها القهوة. فأنا كثيراً ما أرتشف المياه رشفة رشفة على أن أبتلعها في مرة واحدة. كاحتساء القهوة تماماً. ههه

لم تنبت عبير حينها ببنت شفة. وانتظرت قليلاً حتى تأخذ الإرشادات من مازن زوجها. حتى تبادر بالأمر وتنزل عند طلبي. وبحركة من يد مازن، تقدمت عبير بالكأس وقدمته في ظل من البراءة المحبوكة جيداً. فتناولته منها وأنا أنظر إلى الصدر المكتنز المملوء، والذي كشفت غشاوته تلك القصة الخاصة بالثوب الأبيض الذي ترتديه. لم تمر ثوانٍ خرجت بها عبير من الغرفة. وسرقت معها أحلامي وأفكاري السرمدية.

-شو يا أحمد. ألا تريد أن تتابع في ما بدأت به

-ليش وين كنا ؟

كان سؤالي في غاية الغباء. لكنني لم أتمالك اللّحظة.

-ههه. لا أظن أنني هنا الذي يروي الأحداث. أو لعله الذي يبتكرها إذا لم أسيء الظن.

-ما زلت يا مازن بعد كل هذا لا تستطيع تصديق كلامي. ألا تعتقد إطلاقاً أن الحياة مليئة بالمفاجآت. وأن المفاجآت هي تعبير عن الحقيقة، أكثر مما هو الروتين اليومي الذي نخلقه، وبسببه نعتبر ما غير ذلك صدفات لا توجد إلا في سطور الروايات.

-إذا كنت على هذا الجد، فتابع. كلي آذان صاغية لك يا أحمد.

-شكراً لك يا مازن. كما قلت لك سابقاً. تلك المرأة أعادت جوهر الحياة لي. هكذا كما يقال تماماً في الروايات. جعلت من نبضات قلبي ذات معنى يا رجل. تعارفنا على بعضنا في أحد المقاهي التي أرتادها مع أحد الأصدقاء لي. اي هو صديق مشترك لنا. وفي ذلك سنحت لي الفرصة كي أتعرف عليها. وألقاها وجهاً لوجه. ثم تكاثرت تلك اللقاءات المشتركة بيننا. مرةً في السينما كي نحضر فلم ثقافي يتحدث عن المجتمع. ومرة جمعة طربية يعزف كل منا على آلة لون من ألوان الموسيقا التاريخية أو لون من ألوان الطرب المعاصر. كانت اللّقاءات في الفترة الأولى مشتركة مع عدد من الأصدقاء. ولم أستطع كثيراً أن أقابلها بمفردها، حتى تتسنى لي الفرصة أن أتعرف عليها أكثر من الباطن. إنما شعرت في داخلي أنها ترسل لي إشارات. مرادها أن أبادر في السّلام. أعني بذلك أن أتقدم إليها خطوة. فكرت طويلاً في الاحتملات. في جميع الأخطاء التي قد أرتكبها. أو في جميع الحماقات كما تقول أنت. وكلما قلت لنفسي، أحمد يجب أن تكون رجل، ويجب عليك التصرف بذلك، مهما تقدم المجتمع، ومهما ازدهرت الثقافة والحضارة. إلا أن الرجل في جميع المجتمعات وفي جميع البيئات يخطو الخطوة الأولى. إلا أن هذا الكلام الذي راودني. كان يبعدني عن الأمرة خطوات ومسافات. ولم أستطع أن أعزو به لمصيبتي. فأنا من النوع الذي يقع بسرعة. ولا ينهض إلا بعد الوقوع عشرات المرات الأخرى...

-أفهم من كلامك أنك لم تتردد أبداً في محادثتها لمفردها

قال مازن في شيء من السخرية

-لم تسنح الفرصة بعد.

-أو بعبارة أخرى لن تسنح الفرصة لذلك

-ماذا تقصد يا مازن ؟

-لا أقصد شيئاً. إنما أؤكّد لك أن الفرصة في هذا النوع من المواقف لا تأتي بل نحن من نفتعلها. وكثيراً ما يقولون أن الحب مرمي للصدفة العابرة. وأن الزواج نتاج ذلك. أي أن الزواج اقتناص. أنا أرى أن عكس ذلك. فالحب جملة من

الاستنتاجات كمعادلات الرياضيات. والزواج صدفة غير مرغوبة. اي أن الزواج حظ سيء أو ورقة يانصيب خاسرة. ههه.

-ألم أقل لك مسبقاً أنك زير نساء محترف.

-ههه. دعنا مني الآن. بدأت الحديث " في البداية لم تسنح لنا الفرصة أن نتقابل لمفردنا...مغزى الكلام أنك قابلتها في النهاية لمفردها. اي أن الفرص جاءت لصالحك في النهاية " فهل أنا مخطئ في الكلام أم أنك تعني أمراً آخراً...

-بالله يا مازن أنك لمّاح. ولا تفوت عليك فائتة من الكلام. ولم تخطئ في كلامك. إنما هناك تعديل بسيط جداً عليه.

-وما هو ذلك يا أحمد. نورّنا.

-جاءت تلك المحنة التي ابتعد أحدنا عن الآخر. فأنا جاءني عرض للسفر إلى دبي للعمل هناك في إحدى الشركات الخاصة بالبنوك المالية. ولم أستطع كما تعلم أن أرفض العرض. فالمغريات المادية فاقت توقّعاتي. واضطررت حينها بسبب حالتي الغير ميسورة هنا أن أقبل العرض من غير تراجع ومن غير شروط. مضى حين دون أن أسمع عنها، حتى تواصلي مع صديقنا المشترك قد تفتت إلى كسارات. ملعون أبو الغربة...

-إذاً انتهت الرواية المشوقة بسفرك إلى دبي. ملعون أبو هل القصة.

-ههه. لاء لم تنتهي يا مازن. كما ترى، فأنا الآن قد عدت إلى هنا. ومازلت أعزباً. أي أن قصتي مع الحب لم تنتهي بعد.

-إذاً

-كما تعلم. أنني منذلك النوع من الطيور الذي لا يستطيع التحليق بعيداً عن العش. تستطيع أن تجزم ذلك في كل شيء أو في كل منحى من حياتي. هذا أحد أهم أسباب عودتي. وهذا السبب الذي ربطني بتلك المرأة. ولذلك عزمت في عودتي أن ألقاها، وأن أقابلها وجهاً لوجه. وأعترف لها بالحقيقة كاملة. من دون نقصان. لعلّ تأخري قليلاً في السّن كان حافزاً أن أستعدل في الأمور، رغم أنني أحب أن تسير العلاقات كما في الروايات الرومنسية. إلا أن الروايات تلك، تبدأ في الصفحة العشرين وتنتهي بالغلاف الخارجي للكتاب. وكأن الكاتب لم تسعه الصفحات ليدوّن الأحداث جميعها. أي أنها لا تبدأ بعودتي من دبي بعد خمس سنوات من الغربة وتجاوزي سن العشرين.

-إذاً تقابلتم في النهاية ؟

-نعم. إنما كان لقاءنا الأول والأخير...للأسف هي متزوجة الآن.

-ولديها أولاد...

-كلا.

-بل تحبه كثيراً ؟

-لا يجوز لي يا مازن أن أدمر علاقات.

-لا أيها الأبله. لا يجوز لك. إنما تستطيع أن تدمر حياتك.

-ماذا تعني في كلامك ؟

-لا يحتاج الكثير من الشرح...إذا كنت تحبها فعلاً، فلن تحب غيرها. وإن كانت تحبك فزيجها للرضاية فقط. وليحصل ما يحصل. أفضل من أن تنتهي بك الحياة وأنت تتحسّر على ما فات وما مات...ثم تأتي في كل مرة ندم إلي صديقك العزيز مازن وتؤلم رأسه في حزنك المكبوت وألمك الذي لا يندمل...

-لدي متسع من الوقت...سأفكر فيما قلت وسأستشيرك في المرات القادمة إذا ما أردت الإقدام على أمر ما...

-دق الحديد وهو حامي. عجّل بالقصة قبل ما يفوتك القطار. أنا حفوت على الحمام وراجعلك.

خرج مازن من غرفة المكتب الخاصة به. وما إن أغلق باب الحمام خلفه. حتى بدأ العد التنازلي. شعرت بالأدرنالين يجتاح جسدي، وأنا أزحف إلى المطبخ، آخذاً بالاعتبار أن كل حركة وكل خطوة إليه سوف تدنيني من حبيبتي ومن معشوقتي. عبير. مرأتي الساحرة ومرأتي الجميلة. آه كم أريد أن أحظى برؤيتها الآن. وكم خفف من عذابي خروجك يا مازن من الغرفة.

ما إن تسللت إلى المطبخ لأجد عبير بذلك الثوب الأبيض السّاحر وبتلك الابتسامة الجوهرية الفتانة. تقصدني بها حتماً. وتقنصني بها مؤكداً...

-شو مشيت عليه الرواية

قالت عبير في صوت رنان حمله الخبث بعض الشيء على أكتافه.

-ليش في مرة ما مشيت علي رواياتي يا قطة.

-هسس هلأ بيسمعنا.

-بعد فترة بس طالعلك فيزا على دبي ما عاد في هسس أبداً.

-ههه...يلا لكن استعجل فيها يا صديقه العزيز لمازن...

...

تمت بعون الله

اكتب لي رأيك في القصة في التعليقات (المراجعات الخاصة بالمكتبة) أو اكتب لي شخصيًا :) سوف أكون مسرورًا جدًا

أجب على أي سؤال من الأسئلة أو على جميعها في التعليقات

ما هي العبرة التي استخلصتها من القصة؟

كيف يمكن تطبيقها في المستقبل؟

هل لامستك شخصية من شخصيات القصة؟

الأهم من كل ما سبق. هل أعجبتك القصة واستمتعت بها؟

حسابي على الانستغرام 🟣

حسابي على الفيسبوك 🔵